الكنيسة وشركة القدّيسين

الأب جورج فلورفسكي

١. المسيحيّة هي الكنيسة

يشير اسم «كنيسة» (*Ecclesia*)، بحدّ ذاته، إلى الطبيعة الشركويّة التي للمسيحيّة.

ليست المسيحيّة عقيدةً أو شريعة؛ المسيحيّة هي الكنيسة. أن تكون مسيحيًّا لا يعني مجرّد اعتناق عقائد معيّنة، أو إطاعة وصايا معيّنة. أن تكون مسيحيًّا يعني في الأساس أن تكون في الكنيسة، أن تنتمي حقًّا إلى جماعة المسيح المقدّسة هذه. لا يمكن لأحدٍ أن يكون مسيحيًّا وحده، بل فقط بوصفه عضوًا في الجسد. إنّ التعبير اللاتينيّ القديم *"Unus christianus, nullus christianus"* [مسيحيّ واحد = لا مسيحيّ] هو صحيحٌ تمامًا. ومعموديّة كلّ فردٍ ما هي سوى إدخاله في الجسد. "لأنّنا جميعًا بروحٍ واحدٍ أيضًا اعتمدنا إلى جسدٍ واحد، [...] وجميعنا سُقينا روحًا واحدًا" (1 كو 12: 13).

٢. جماعةٌ في القداسة

في قانون الإيمان الرسوليّ، يترافق بندا "الكنيسة الجامعة المقدّسة" و"شركة القدّيسين". في الواقع، هما يشيران إلى الحقيقة عينها، فالكنيسة هي بالتحديد الجماعة المقدّسة، جماعة ما هو مقدّس. نجِدُ هذا التحديد في أحد التفسيرات الأولى لقانون الإيمان الرسوليّ، والذي يعود إلى نيقيتا أسقف ريمِسيانا في القرن الرابع، إذ يقول: «ما هي الكنيسة إلّا تجمّع القدّيسين كلّهم؟ إنّ الآباء والأنبياء والرسل، وجميع الرجال الصالحين الآخرين الذين عاشوا منذ بدء العالم، والذين يعيشون الآن أو سيعيشون في المستقبل، هم كنيسةٌ واحدة، لأنّهم تقدّسوا بإيمانٍ واحدٍ وأسلوبِ حياةٍ واحد، وخُتِموا بروحٍ واحد، وهكذا شكّلوا جسدًا رأسُه المسيح».

٣. الكنيسة هي جماعة

جسدٌ واحد: هذا التشبيه الممتاز الذي استخدمه بولس الرسول لوصف سرّ الوجود المسيحيّ، يشهد على

الخبرة العميقة التي كانت في الكنيسة الأولى. لا توجد هنا أيّة نظريّة معيّنة، بل وُلِدَ التشبيه من اختبارٍ حيّ، وتطوّر في الروح المسيحيّة من خبرة الأسرار، مثل المعموديّة بوصفها إدماجًا، والإفخارستيّا بوصفها سرًّا شركويًّا. "فإنّنا نحن الكثيرين خبزٌ واحد، جسدٌ واحد، لأنّنا جميعنا نشتركُ في الخبزِ الواحد" (1 كو 10: 17). الروح المسيحيّة هي روحُ شركةٍ تمامًا. المسيحيّون هم إسرائيل الجديد والحقيقيّ، الشعب الجديد المختار من الله، العرق المسيحيّ، "كهنوتٌ ملوكيّ، أمّةٌ مقدّسة، شعبُ اقتناء [مُقتنى]" (1 بط 2: 9). والكنيسة هي «جمعيّةٌ عموميّة» لهذا الشعب الفريد والمقدّس، جمعيَّةٌ لا تتأجّل مطلقًا، على حدّ قولِ لاهوتيٍّ روسيّ، ولا يمكن حلُّها مطلقًا لأنّها مجتمِعةٌ في المسيح، في وحدة الحياة الأبديّة. الكنيسة كائنٌ حيٌّ لا مجرّد شركةٍ أو جماعة. إنّها أعضاءٌ كثيرون وجسدٌ واحد، وحياةٌ واحدةٌ لهذا الجسد.

٤. الجماعة هي واحدةٌ في المسيح

الكنيسة هي جسد المسيح و«ملؤه». يرتبط مصطلحا «جسد» و«ملء»، *«soma»* و*«plerôma»*، الواحد بالآخر ارتباطًا وثيقًا في مفهوم بولس الرسول (انظر أف 1: 23: "الذي هو جسدُه، ملء الذي يملأ الكلَّ في الكلّ"). الكنيسة هي جسد المسيح لأنّها تمامُه – هذه هي أنسب ترجمة لكلمة *«plerôma»*. يفسّر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم فكرة بولس الرسل بهذا المعنى قائلًا: «الكنيسة هي إتمام المسيح بالطريقة عينها التي يُكمِلُ بها الرأسُ الجسدَ والجسدُ الرأسَ». ونرى من جديدٍ تشبيهًا بكائنٍ حيّ. ليس المسيح وحده، بل «يتكوّن جسده من جميع الأعضاء. هذا يعني أنّ الرأس لن يكتمل إلّا عندما يصبح الجسد كاملًا، أي عندما نكون معًا، متّحدين وملتحمين في واحد». يشرح المغبوط أوغسطين التشبيه عينه قائلًا: «لأنّ المسيح ليس ببساطةٍ في الرأس أو في الجسد، بل هو كاملٌ في الرأس والجسد معًا[1]». *«Christus totus»* هو تعبيرٌ مفضَّلٌ لدى المغبوط أوغسطين، تعبيرٌ يظهر مرارًا وتكرارًا، بخاصّةٍ في عظاته الموجَّهة إلى المؤمنين البسيطين، لا إلى اللاهوتيّين فحسب. «عندما أتحدّث عن المسيحيّين بصيغة الجمع، أفهمهم بوصفهم واحدًا في المسيح الواحد. وهكذا، أنتم كثيرون، ومع ذلك، أنتم واحد؛ نحن كثيرون، ومع ذلك، نحن واحد»، أو أيضًا: «ربُّنا يسوع المسيح هو إنسانٌ كامل، في الوقت عينه رأسٌ وجسدٌ[2]». جسد هذا الرأس هو الكنيسة،

[1] *«Christus totus in capite et in corpore»*
[2] *«Totus perfectus vir, et caput, et corpus»*

ليس فقط من هذا البلد، بل من العالم كلّه، ليس فقط من هذا العصر، بل منذ هابيل نفسه حتّى أولئك الذين سيولدون ويؤمنون بالمسيح حتّى نهاية الزمان، جماعة القدّيسين كلّها التي تنتمي إلى مدينةٍ واحدة: جسد المسيح الذي المسيح رأسه». هذا المفهوم هو في آنٍ أصليٌّ وكتابيٌّ (انظر 1 كو 12: 12 وعب 12: 22-23)؛ هو ليس مجرّد تفكير فلسفيّ، بل خبرة حياة. الكنيسة هي جماعة، شركةٌ بين كثيرين في مسيحٍ واحد، في روحٍ واحد؛ ووفقًا لكلمات القدّيس أثناسيوس، «عندما يُعطى لنا الروحُ القدس لنشرب، فإنّنا نشرب المسيح».

٥. «قدّوسٌ واحدٌ...»

وجَبَ التأكيد على نحوٍ خاصّ على نقاطٍ عدّة، وأوّلها أنّ الوحدة مُعطاةٌ من العلاء. هي مُعطاةٌ لأنّنا متّحدون في المسيح ومن خلاله. لقد اتّحدنا كأغصانِ كرمة، متجذّرين ومضمومين في المسيح. كوننا كثيرين، نُقادُ إلى الوحدة لأنّ الروح في عطاياه المتعدّدة هو واحد. الوحدة المسيحيّة ليست وحدةً بشريّةً بحتة. ليست وحدة قناعاتٍ أو أفكارٍ مشتركة، ولا وحدة يضمنها نظامٌ يحافظ عليه الجميع. لا تتحقّق هذه الوحدة باتّفاقاتنا البشريّة. نحن لا نخلقها أو نؤسّسها، بل نؤخَذُ إليها. تُعطى لنا النعمة ويجب علينا أن نقتبلها ونقبلها. تُعطى من العلاء، عطيّةً كاملةً وإلهيّة. نحن مجتمعون في وحدةِ حياةٍ أبديّةٍ وروحيّة.

٦. «القدسات للقدّيسين»

إنّها وحدة تقديسنا أو تكريسنا؛ وهي، بالأخصّ، وحدةٌ ذات طابعٍ أسراريّ *"communio in sacris"*. ربّما كان هذا هو المعنى الأصليّ لعبارة *"communio sanctorum"*، «الشركة في القدسات» (مع اعتبار لفظة *"sanctorum"* محايدة بدلاً من مذكّر). هذا مجرّد تخمينٍ بالطبع، لكن على أيّة حال، تتضمّن لفظة «قدّيس» *"sanctus"* أمرًا من هذا القبيل، لأنّ هذه الكلمة لا تشير إلى أيّ إنجازٍ بشريّ، بل إلى التكريس أو التقديس، إلى عطيّة. وبهذا المعنى، كلّ مسيحيّ هو قدّيسٌ بحُكم تكريسه في المعموديّة. تأتي القداسة من الله وحده، الذي هو وحده قدّوس. أن تكون قدّيسًا يعني أن تشارك في الحياة الإلهيّة. وقد حدّد القدّيس سيرافيم ساروف، على نحوٍ ملائم، هدفَ الحياة المسيحيّة بأنّه «اقتناء الروح القدس». من اللافت للنظر

حقًّا أنّ كلمة «قدّيس» في العهد الجديد تُستخدَمُ في صيغة الجمع حصرًا تقريبًا، لأنّ القداسة اجتماعيّة بالمعنى المتأصّل فيها. ومرّة أخرى، يستخدم القدّيس بولس بوضوحٍ مصطلحَي «كنيسة» و«قدّيسون» على أنّهما مترادفان. لا يمكن للأفراد اقتناء القداسة إلّا في الجماعة، في «شركة الروح القدس». تعبير «شركة القدّيسين» فيه تكرار، إذ لا يمكن للمرء أن يكون «قدّيسًا» إلّا في الشركة - لا يمكن لأحدٍ أن يكتسب القداسة بمفرده.

٧. عدم انفصال الأحياء والأموات في الكنيسة

لا يفصل الموتُ بين جماعة المؤمنين في الكنيسة. فالأحياء والأموات هم أعضاءٌ في الجسد عينه، ويعيشون معًا إلى الأبد في المسيح الحيّ، ووحدتهم هي وحدةُ صلاةٍ وشفاعة. الكنيسة الظافرة هي الكنيسة المُصلّية، والكنيسة المُجاهِدة تصلّي دائمًا من أجل الأموات، من أجل الجسد كلّه. والصلاة من أجل الأموات هي علامةٌ على الجامعيّة. في سرّ الشكر، لا يذكَرُ الأموات فحسب، بل تُقدَّمُ الذبيحة «باسمهم»، و«باسم جميع الذين أتموا مسيرتهم في الإيمان» (وهو المعنى الدقيق للتعبير اليونانيّ ὑπέρ، وليس مجرّد «من أجلهم»). من المُعبِّر أنّ خدمة الجنّاز كانت من ضمن الخِدَم الأسراريّة في الكنيسة الأولى، وأنّه لم يكن مسموحًا للموعوظين بالحضور. فقد كان الأمر فعلًا جماعيًّا للكنيسة بوصفها جماعة حديثي الولادة في الربّ، فعلًا خاصًّا بالجسد الأسراريّ (انظر الفصل الخاص بذلك في كتاب ديونيسيوس الأريوباغي «الهرَميّة الكنسيّة»). ثمّة تشابهٌ عميقٌ بين المعموديّة والدفن (أو الموت): موت المسيحيّ هو أيضًا يوم ميلاده المستيكيّ (موت الشُّهداء هو يوم ميلادهم *"dies natalis"*).

الموت سرٌّ، هو أحد أكثر الأحداث مستيكيّةً وأهمّيّةً في حياة الإنسان؛ وموت كلّ عضوٍ في الجسد ينعكس روحيًّا في حياة الجسد كلّه. هذا تؤكّده بشدّةٍ جميعُ صلوات الجنّاز وطقوسه. بالطبع، يبقى المتوفّى دائمًا في الكنيسة. وتصلّي الكنيسة المُجاهِدة لكي «يرتّب الربُّ إلهنا نفسه في مكان نور، في مكان خُضرة، في مكان راحة، حيث جميع الصدّيقين، حتّى يُحسَبَ مع الذين في أحضان إبراهيم وإسحق ويعقوب». إنّ عبارة «الراحة مع القدّيسين» تعني الشركة مع القدّيسين، أي مكانًا بين القدّيسين في الأماكن السماويّة –هنا نجد «شركة القدّيسين».

إنّ تعبير «شركة القدّيسين» يعني شركتنا مع القدّيسين. واستدعاء القدّيسين هو العلامة الجديدة للجامعيّة. ما شركتنا في الصلاة مع القدّيسين الممجَّدين سوى امتدادٍ لما هو طبيعيّ في حياتنا المُشتركة، لأنّ القدّيسين هم أولئك الذين كانوا معنا هنا على الأرض، *in via* [في الطريق]، أو مع أسلافنا، وكانوا آنذاك في جماعة الشفاعة. الأمر بسيطٌ جدًّا؛ فالأخ الذي كان معتادًا على الصلاة من أجلي في الماضي، عندما كنّا لا نزال حُجّاجًا للربّ على الأرض، والذي ربّما كان في محبّته وتفانيه عونًا كبيرًا لي ومرشدًا، لا يتوقّف عن الشفاعة لي الآن، بوصفه عضوًا في رفقة القدّيسين المجيدة في راحته مع الربّ. لم تنكسر محبّته؛ بل على العكس، أصبحت أوسع الآن، مُنارةً بنور محبّة الله الأبديّة «في أحضان الآب». وما علينا إلّا أن نستجيب لهذه الشفاعة المستمرّة من أجلنا، أن نشارك في شفاعة «الكنيسة الممجَّدة والظافرة». هذه المشاركة هي بالضبط ما تعنيه ابتهالاتنا. وفي جيش القدّيسين المجيد، نميّز أشخاص إخوتنا وآبائنا في إلهنا الحبيب. هم أحياءٌ فيه، وفيه لا نزال متّحدين بهم. مع أنّ الموت فصلَ بيننا، فإنّنا مجتمعون فيه، الذي هو القيامة والحياة الأبديّة. لا يمكن أن يتعارض استدعاء القدّيسين، بأيّ شكلٍ من الأشكال، مع الإيمان بوسيطٍ واحدٍ ومحامٍ واحد[3]. سيتشفّع القدّيسون أمامه، والهدف الحقيقيّ لإكرامنا للقدّيسين هو النعمة الإلهيّة الممنوحة لهم، وعطايا الروح القدس، لا إنجازاتهم البشريّة بقدر تجلّيات رحمة الله ومجده في هذه الإنجازات. ونشكر الله على القدّيسين، على رحمته تجاههم. أمّا هؤلاء القدّيسون، فهُم فيه ومعه. ليس رأسُ الكنيسة وحده مطلقًا، بل مع قدّيسيه، مع «أصدقائه» الذين تُمجّدهم الكنيسة. ونحن نتّحد بالقدّيسين بخاصّةٍ في سرّ الشكر، في الاحتفال بالذبيحة الواحدة الوحيدة.

وجبَت إضافة ملاحظةٍ أخيرةٍ إلى هذا الكلام الموجَز. يتوجّه إطار صلواتنا كلّه نحو الأخويّة، نحو الشركة العامّة للمؤمنين. يُفترَض أن تُصلّى الخدم نفسها علنًا وسرًّا، في الكنيسة أو في المنزل أو من قبل ناسكٍ في الجبال أو الغابات، لأنّ المسيحي في عبادته ليس وحيدًا مطلقًا. يجب أن يصلّي كعضوٍ في جسد، كواحدٍ من الذين يشكّلون أخويّة المسيح، لا أن يصلّي من أجل نفسه فقط. حتّى عباداتنا الخاصّة يجب أن تكون

[3] كما يعترض البروتستانت، مبرّرين بذلك رفضهم لإكرام القدّيسين، وللإيمان الأرثوذكسيّ الذي بموجبه يمكن للأحياء والأموات أن يتشفّعوا بعضهم لبعض (ملاحظة للمترجم إلى الفرنسيّة).

مشاركةً في العبادة الجامعة للكنيسة كلّها، ويجب أن نُدرِجَ عباداتنا ضمن إيقاع وجوقة هذا التعبُّد الكونيّ لربّنا. ننضمّ إلى هذه الجوقة، ننضمّ إلى الكنيسة المُصلّية، نجد أنفسَنا فيها ضمن إيقاعٍ هو إيقاع عبادة الكنيسة. وإذا فشلنا في ذلك كثيرًا، أو حتّى في الاعتراف بالواقع الأسمى لـ «الكنيسة المُصلّية»، أو إذا فضّلنا أحيانًا أن نصلّي صلواتنا بأنفسنا، فإنّ ذلك يُظهِرُ مدى نقصنا المسيحيّ. وذلك لأنّ ربّنا جاء ليردّ الخروف الضالّ إلى القطيع الوحيد، إلى الجسد الوحيد، إلى «شركة القدّيسين».

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archiprêtre George Florovsky (n.d.) "L'Église et la communion des saints". In Jean-Claude Larchet (2019) (eds.), "*En suivant les Pères…", La vie et l'œuvre du Père Georges Florovsky.* Éditions des Syrtes, Paris, France.